تلخيص مفهوم الخطاب

إن التضخم الهائل للنظرية البنيوية وتفرّعاتها المنهجية، فرض نقد دية في مدلولات مصطلح "الخطاب"، غير أنه هذه المدلولات لا تتعارض في تعاريفها له؛ بأنه ممارسة لملكة اللغة، وإن كانت تختلف في زاوية النظر إلى هذه الممارسة وعليه يمكن القول إن الخطاب هو:

« كل مجموع له معنى (لغوي، شفويا كان أم كتابيًا) تختلف أبعاد هذا المجموع من حالة إلى أخرى، فقد يكون جملة واحدة أو فقرة أو نصًا، يتكوّن من فقرات متعددة، كما تختلف أشكاله ومضامينه ومجالاته الدلالية، وهي كل حالة تخضع لقواعد وقوانين خاصة تنظمه، على أنه يجب إدراج هذا المجموع أو البناء ذي الدلالة في سياق تبليغي يفترض وجود طرفين تجري بينهما العملية، سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة. »[2]

كما يمكن تلخيص مفهوم الخطاب كما يلي:

إنه « نظام تعبير متقن ومضبوط، وهذا النظام ليس في جوهره إلا بناء فكريًا، يحمل وجهة نظر، وقد تمت صياغته في بناء استدلالي، أي بشكل مقدمات ونتائج، ويجري الخطاب بين مرسل ومتلقٍ للرسالة، ضمن عملية الاتصال. »[3]

- مفهوم الخطاب الأدبي.

لقد اتسع مفهوم الخطاب ولم يبق في إطار حدود مركب الجمل أو الملفوظات، كما ذهب إلى ذلك اللسانيون، بل أصبح خطابا إشاريا، انزاح عن الكلام الواضح المألوف إلى اللغة الأدبية، الأمر الذي جعله متعدد المستويات، عميق البنى يختلف من جنس أدبي إلى آخر، فهناك الخطاب الأدبي، والخطاب الشعري والخطاب النثري والخطاب السردي، والخطاب النقدي...

وعليه ما هو الخطاب الأدبي؟

يذهب جاكبسون إلى أنّ "الخطاب الأدبي نص تغلّبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام".[٣]

أمّا تودوروف فيرى" أنّه خطاب انقطعت عنه الشفافية، معتبرًا أنّ الحدث اللساني العادي هو خطاب شفاف، نرى من خلاله معناه، ولا نكاد نراه هو في ذاته، فهو منفذ بلّوري، لا يقوم حاجزًا أمام أشعّة البصر بينما يتميز عنه الخطاب الأدبي، بكونه ثخينًا، غير شفاف، يستوقفك هو نفسه، قبل أن يمكّنك من عبوره أو اختراقه، فهو حاجز بلّوري، ظلمة سودًا ونقوشًا وألوانًا، تصدّ أشعّة البصر أن تتجاوزه".[٣]

ويذهب نور الدين السدّ إلى أنّ "الخطاب الأدبي فعالية لغوية انحرفت عن مواضعات العادة والتقليد، وتلبّست بروح متمرّدة، رفعتها عن سياقها الاصطلاحي، إلى سياقٍ جديد، يخصّها ويميّزها".[٣]

ثم يضيف في ذات السياق أنّه "تحويل لغة عن لغة موجودة سلفًا وتخليصها من القيود التي يكبّلها بها الاستعمال والممارسة".[٣]

وبناء عليه فإنّ عبارة "الخطاب الأدبي" تعني فصلًا لنوع معيّن من الخطاب عن أنواع أخرى، أو تعني على الأقل بأنّ وجود خطاب أدبي يفترض وجود خطاب غير أدبي، لكل من الخطابين مقاييسه التي تميّزه والتعرّف في الخطاب الأدبي على هذه المقاييس يعني استخلاص أدبيّته وتبيّنها، أي استخلاص جملة الشروط والخصائص التي تجعل من خطاب معيّن خطابًا أدبيًا، وهو ما جعل بعض الدارسين المحدثين يرون بأن هدف علم الأدب ليس دراسة الأدب، بل دراسة أدبيّة الأدب، أي خصوصيته التي لا يمكن أن تتحدّد إلّا على أساس الأشكال التي تأخذها العلاقات التي تقوم بين مختلف أجزاء الخطاب، ذلك أن الخطاب الأدبي

لا يختص بمضمون محدد، كالخطاب السياسي أو الرياضي مثلاً فكل الموضوعات والمضامين التي تشكلها العوالم المعنوية للغة ما، بإمكانها أن تشكل مادة لمضمونه.

فاستجلاء ملامح الأدبية إذن، أي دراسة الخطاب الأدبي وتمييز ما هو خاص به، هو موضوع الدراسة الحداثية (البنيوية على الخصوص) التي ترى بأنه ليس الأثر الأدبي بذاته هو موضوع الفعالية البنيوية ما تسأل عنه هذه الفعالية، إنما هو خصائص هذا الكتاب الخاص الذي هو الخطاب الأدبي* وهذا العلم غدا لا يهتم بالأدب المنجز بل بالأدب الممكن، وبعبارة أخرى، بهذه الخاصية التجريدية التي تمنح تفرد الفعل الأدبي أي الأدبية.

وعليه نخلص إلى القول إن نظرية الخطاب هي التي اصطلح عليها النقاد الحداثيون في أوربا اليوم "الشعرية" أو "علم الأدب" وهي نظرية تعمل على استقصاء واستنباط القواعد والأسس الداخلية التي يقوم عليها الخطاب الأدبي، أي البحث عن العناصر التي جعلت من النص الأدبي أدبا؛ وبهذا يغدو الخطاب وثيقة تحليلية خصبة وموضوعا لنظرية الخطاب، واستكشاف مجاهيل جديدة، لم تتجه العناية إليها من قبل في الخطاب.

* ينظر المحاضرة ① - ② للتوضيح.